عصر الانسانية المقبل

الانتقال من الفردية المطلقة الى التنظيم الاجتماعي
والبناء على مثال النمل والنحل

من بحث لاندره موروى الكاتب الفرنسي المشهور

هل ثمة اساس لما يقال من ان تاريخ الانسانية تتداوله عصور يتلو جديدها قديمها ؟ اليس تتابع الحوادث في التاريخ مستمراً فاذا عمد المؤرخ لدرس الماضي اخذ الشريط الذي دونت عليه الحوادث ، وقطعه قطعاً تسهيلاً لتناوله فيدعو قطعة منه «العصور الوسطى» واخرى «العصر الحديث» وهكذا . ثم أليس من المتعذر اقامة الدليل على ان ابناء عهد ما كانوا يشعرون بأنهم منتقلون من عصر الى عصر . فالحوادث التي تحسب الآن اعلاماً في طريق التاريخ لم يحسبها كذلك الذين عاصروها . فبنطيس بيلاطس لم يتخيل قط ما سوف يكون مقامه في التاريخ . فلما انقضت نحو ستمائة سنة على ميلاد المسيح قرر احد الرهبان ان يجعل سنة ميلاده مبدءاً للتقويم المسيحي . ولما هجم الفرنسيون على حصون الباستيل يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ تريث لويس السادس عشر ليدون في يوميته وصف حفلة صيد وقنص حضرها !

ان الثورات الحقيقية هي بمثابة قنابل تنفجر بعد ما تمتد اسبابها الى آفاق الماضي الذاهبة

وتيار التاريخ يكون آناً رهواً وآناً صاخباً متدفقاً . وهو تارة بطيء فاذا استطلع المؤرخ ضفافه الفاها على وتيرة واحدة ثم يسقط فجأة من مرتفع فيحدث دوياً وصخباً

ولو ان رجلاً من معاصري الامبراطور ديوقلطيانوس رأى رومانياً من عصر الامبراطور اغسطس لعرفه رغم القرون الفاصلة بين عهدي الامبراطورين . او لو ان فرنسياً نام في باريس سنة ١٦٦٦ واستيقظ سنة ١٧٨٨ لعرف الملك وبلاطه . واذا ألم بآراء الفلاسفة استغربها ولكنها لم تذهله . ولكنه لو نام ثانية سنة ١٧٨٨ واستيقظ سنة ١٧٩٨ لوجد نفسه في عالم لا يفهمه على الاطلاق . ولو ان اميركياً من العقد السابع في القرن الماضي ظهر في نيويورك سنة ١٩٣٠ لحسب متوحشاً جاهلاً لا يعرف ابسط حقائق الحياة

فاذن نستطيع ان نحسب كل فترة قصيرة من الزمان حدث في خلالها انقلاب اساسي في حياة الناس وافكارهم ، بواسطة عقيدة جديدة او سلسلة من المستنبطات او ارادة عبقري متفوق ، مفتتح عصر جديد . فهل نحن في مفتتح عصر جديد ؟ واذا كنا في مفتتحه فما أسباب الانقلاب وما ينتظر ان يتصف به العصر المقبل . وقد قلنا ان اسباب الانقلاب تفعل فعل القنابل ، فهل تحت اركان المجالس النيابية الآن ، مراجل تغلي وشيكة الانفجار ؟

في القرن السادس عشر غرس المصلحون البروتستانت ، وبوجه خاص المصلح كلفن ، فكراً جديداً في اذهان الناس . قالوا انا لا نحتاج الى وسيط بيننا وبين الله ، بين الكتب المقدسة وعامة القراء . فدعوا بذلك الى الحرية في ميدان العقيدة الدينية ، ومهدوا الطريق للدعوة الى الحرية في ميدان التفكير السياسي . فالرجل الذي يستطيع ان يفسر التوراة يستطيع كذلك ان يحكم في شؤون الدولة . والرجال الذي يتساوون امام الله ، يجب ان يكونوا متساوين امام القانون . فالفلسفة الفردية كانت مطوية في تضاعيف الاصلاح الديني

ومن الغريب ان الفلسفة المقابلة للفلسفة الفردية اي فلسفة الاشتراك في العمل Collectivism كانت مطوية فيها كذلك . « فبادىء البروتستانت عزلتهم عن غيرهم ولكن حماستهم في سبيلها وحدتهم لجعلتهم قوماً واحداً » هكذا قال لوثيروس . فان افكارهم دفعتهم الى طلب الحرية ، ولكن النزاع الشديد اقتضى التنظيم الدقيق والخضوع للنظام . توحدتهم الاجتماعية لم تكن وحدة جماعة دينية وانما كانت وحدة جيش محارب . وعلى ذلك أيد لوثيروس بعض الامراء ، وكانت حكومة كلفن نفسه بمثابة دكتاتورية . وقد سلم الناس بهذه المفارقات حينئذٍ لان الحمية الدينية جعلت الاستبداد مقبولاً

ولكن لم يطل المطال حتى ظهرت بلاد لا تعلم بالاستبداد ، فآتت العقيدة البروتستانتية فيها اشهى ثمارها . تلك البلاد كانت « نيوانجلند » (الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة الاميركية التي نزل فيها المهاجرون اولاً) فقد كان معظم المهاجرين الثلاثة « البيورتان » من طبقة اجتماعية واحدة . ولما كانت افكارهم قد وحدت بينهم في منفاهم لم يتعين عليهم ان يقاوموا اي اضطهاد في بيئتهم الجديدة . ففي نيوانجلند سارت الفردية البروتستانتية سيرها الطبيعي متجهة الى الديمقراطية الصحيحة

ومن البلدان البروتستانتية العظيمة — من انكلترا عن طريق فولتير ومنتسكيو ، ومن اميركا عن طريق لافاييت وفرنكلن ، ومن جنيف عن طريق روسو — استمدت الثورة الفرنسية فلسفتها في « حقوق الانسان » . وكان روسو تلميذاً لكلفن فبلغ بزور مذهبي الفرد والجماعة ودعا الى دولة يكون السيد فيها كلي السلطان لان السيد هو الشعب . وفي كلامه كثير مما يذكرك بروسيي العقد الثالث من القرن العشرين

اما القرن الذي تلا الثورة الفرنسية فكانت السيطرة فيه للناحية الفردية من هذه الفلسفة . فطالبت الشعوب بحقوقها — وفوقها كلها حق التصويت لانهُ كان رمزاً للمساواة وضماناً للحرية . وكان التصويت اولاً ميزة تمتاز بها بعض الطبقات (فكان مبنيّاً على مقدار الضرائب في انجلترا وفرنسا وحبس عن بعض السلالات الملونة — الزنوج — في اميركا) ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على ختامه حتى كان حق التصويت قد اصبح عاماً في طائفة من كبر

البلدان ، على أثر ثورات واصلاحات اخذ بعضها برقاب بعض . ولو انه طُلب من عاقل ان يبدي رأيهُ في اتجاه الاجتماع سنة ١٩٠٠ لقال ان العالم في مفتتح عصر الحرية . وفازت دول الاحرار في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وعلى اساس الدعوة الى الحرية فاقبلت سائر الامم على تقييدها في نظامها الحكومي والاجتماعي

ولكن قوى خفية جديدة كانت تقوض دعائم الديمقراطية والفردية . فالتصويت العام جعل السلطة في ايدي الجماهير . فلم تحجم الاحزاب عن اي عمل للفوز بالاصوات . فاصبح المحافظون من أتباع الدجل السياسي وحاول الاغنياء التأثير في الرأي العام باساليب مبتدعة من الدعاية . وهكذا بدأت الديمقراطية تنحو نحو الدماجوجية (الدجل السياسي) والبلوتوقراطية (حكومة الاغنياء)

ولولا الحرب العالمية والازمة الاقتصادية الخانقة التي تلتها ، لامكن ترقيع النظام القديم بالاصلاح والتعديل والاحتفاظ به الى مدى . على ان الديمقراطية تحتاج ، لتبقى راسخة البنيان الى تعليم الشعوب في فترات السلام والرخاء . فاذا هبّت الزوابع فضّل الناس السلامة على الحرية . ولا تطاق الحكومة المستبدّة في هذه الحال ، الا اذا بدا في نظامها شيء جديد . كذلك استبدل كلفن حكومة الاقلية الارستقراطية في جنيف باستبداد ديني . وكذلك قضى الروس على استبداد القيصر واحلّوا محلّهُ دكتاتورية العمال

اما الدماجوجية وسيطرة الاغنياء في بعض البلدان التي اخذت بمذاهب الاحرار ، فاورثت شروراً ومساوي طغت على مآثر الافراد . أما في ايطاليا وروسيا فالرأي الآن انهُ يجب ان يخلى السبيل للدولة . واما المانيا فيظهر انها تبحث عن قوة جبارة يستطيع ان يجد فيها شبابها المتصوف قبلة للاجلال . ان نصف الامم المتمدنة اخذت تشيح بوجهها عن الديمقراطية . والصحف في اميركا لا تفتأ تعرب عن مخاوفها من النزعات الحرة ورغبتها في الحكومة القوية

ان في روسيا جيلاً جديداً غير ملمّ بمذاهب الاحرار في غرب اوربا واميركا ، بل هو يحتقرها ويزدريها ، اذ بسطها احد لهُ . ففي روسيا لا يبحثون قط في حقوق الانسان ، بل في واجبات الانسان . والفرد يرى شيئاً من النشوة الدينية اذ ينسى ذاته ليشترك في ذات الدولة . ان وكر النمل وقفير النحل اصبحا النموذج الذي تبني عليه الجماعات الانسانية . وهذا مناقض كل المناقضة للمُثُل التي كانت سائدة في القرن الماضي . فهل نستنتج ان التطرف الذي بدا في البلدان «الفردية» النزعة قضى على هذه المُثُل ؟ وهل يكون العصر الجديد عصر النمل والنحل ؟

اما القبلة الثانية التي أُشعلت مراراً في العالم الحديث ، فطفئت ثم اشعلت ثانية وثالثة فهي قبلة العلم التجريبي . اشعلها اولاً بعض الشعوب القديمة كاليونان . وتلاهم العرب فزادوها لهيباً . ثم تعهدتها اوربا بعيد عصر النهضة أو الاحياء . ولكن الانفجار العظيم الذي نشهد آثاره جاء في مطلع القرن التاسع عشر . فقد خلق العلم التجريبي الآلة ، وهي اداة وضعت قوى الكون في متناول يد الانسان

وزيادة طاقة الانسان زيادة لا تحد عمل مفيد اذ يستطيع بها ان يزيد ما يصنعهُ من العروض ثم هي تمهد السبيل امامهُ لابتداع عروض جديدة . وتمكنهُ من ملاذ كانت لغلائها وندورتها فوق طاقته . واذ حلت الآلة محل العامل ، عمد العلم الى الحقل فزاد غلالهُ وجوّد صنفها . وكل هذا لا تنكر فائدتهُ . ولو ان مراقباً حاول ان يحكم على حالة العمران في مطلع القرن العشرين لقال هذا مفتتح عصر ازرخاء . اما الآن وقد انقضى نحو قرن ونصف قرن على استنباط الآلة البخارية فاننا نرى نتائج لم تخطر ببال احد من ثلاثين سنة على الاكثر

فتوسيع نطاق الانتاج يفضي الى صنع عروض لا يحتاج الناس اليها كلها . والبضائع المصنوعة في طبقة عالية من الجودة والمتانة ولكن الناس لا يبتاعونها . وها هي المصيبة نزلت ببني الانسان . واية مصيبة هي — مصيبة كثرة البضائع والعروض التي كانت تحسب سبيلهم الى الرخاء . والآلة التي كان ينتظر ان تغني الانسان وتخفف اعباءهُ جلبت في اثرها العطل عن العمل والبؤس — وليس هذا لأن الآلة شرٌّ بحد ذاتها ، بل لضعف الذكاء الانساني

وكان من أثر الاساليب العلمية التخصص في الصناعة والزراعة . فكانت كل جماعة قبلاً تصنع ما تحتاج اليه فكان لهذا أثره السيء لانهُ اذا اعلت الحقول سنة حلّت المجاعة بالجماعة التي تعتمد عليها للحصول على الغذاء . اما وقد خلق العلم وسائل للمواصلات السريعة فقد اصبح من الميسور نقل الغلال من مكان الى آخر نقلاً سريعاً فبدا للمفكرين ان كثرة الغلال وسرعة المواصلات ازالتا شبح المجاعة من العالم

ولكن الاعتماد على المواصلات السريعة حمل الناس على تركيز الصناعة والزراعة في مواقع خاصة ممتازة . وهذا عمل مفيد لولا انهم اهملوا العناية بتوفير اسباب التبادل . وقد ابانت الازمة العالمية التي ما زلنا نعانيها ، ان شبح المجاعة ما زال يهدّد العالم . فغارس اشجار المطاط قد يموت جوعاً والى جانبه اكوامٌ من غلته التي لا تباع . وزارع الحنطة قد يهرأ برداً وحواليه اكداس الحنطة . ففكرة الوحدة الاقتصادية العالمية قد منيت بالخيبة — الآن على الاقل

ثم ان الشك العلمي ، قد فتك في نظر البعض بصدق الايمان . وبعض الناس يحيون من دون الايمان الصادق واما البعض الآخر فلا يستطيع ذلك . فالدين مكن البائسين من الصبر على آلامهم املاً في الجنة حيثما لا اوصاب ولا آلام . ولكن المادية العلمية دفعت الذين لا يرغبون في الملذات العقلية الى البحث عن اكفاء الشهوات العارضة . على ان الانغماس في الشهوة التي لا ضابط لها مناقض للطبيعة البشرية . فهو يهدم الجماعات التي تنصرف اليه ولا يلبث ان يدفع نقيض اللذة وهو الالم

ثم ان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون مثل اعلى يرنو اليه . وفي عصرنا هذا أسبغ على القومية ثوب ايمان جديد . ولكن القومية العنيفة المحاربة لا تستطيع ان تعيش في جماعة اساس نظامها الاقتصادي التبادل الدولي ، او في عالم المشترك فيه الدول والتجنيد الاجباري لجعل

الحرب بمثابة انتحار للبشرية . فليس امامنا في ميدان السياسة الا عقيدتا الفاشية والبلشفية . في رومية وموسكو اصبحت الدولة مصدر الآداب ومعطية الفضائل . اما ونحن في عالم تعوزهُ العقيدة والحكمة ، فقد لا نرى سبيلاً آخر للخلاص

والظاهر ان العصر الذي اشتركت فيه مذاهب الاحرار والعلم لتحقيق السعادة الانسانية قد بلغ غايتهُ . قد نستطيع ان نخلص الحرية السياسية من البوار ولكن يجب ان نضحي في سبيلها بالحرية الاقتصادية . ونحن الآن في مفتتح عصر كلمة السرّ فيه «التنظيم» وهذا التنظيم يحاول ان يتخذ في اميركا مثلاً شكل حكومة مؤلفة من خبراء ، وفي بلدان اخرى شكل جماعات من الماليين Cartels تسيطر على الحكومة من وراء ستار . فهل يكون البناء في العصر الجديد على مثال ما تفعله النمل ؟

قد تفوز النزعة الاشتراكية . واذا نجحت التجربة الروسية تكون قد ابدعت مثالاً جديداً من النظام الاجتماعي . ولا يلزم ان تذيع طريقتها في تنظيم الحياة الاقتصادية بالفتح والثورة بل يمكن ان تذيع بالعدوى والتقليد . فالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ لم تحدث انقلاباً عنيفاً في انكلترا ولكن مبادئ سنة ١٧٨٩ هي اهم البواعث على الاصلاح الانتخابي الذي تمّ في انكلترا سنة ١٨٣٢ بل نستطيع ان نقول ان سقوط الباستيل كان اهم حادث في تاريخ انكلترا . ولعلّ سقوط القيصرية الروسية يحسب في المستقبل اهم حادث في تاريخ الولايات المتحدة

ولكن عصر التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قد ينتهي بالخيبة . ولم يثبت حتى الآن ان الذكاء الانساني يستطيع ان يسيطر على مستقبلنا الاقتصادي وتنظيم حاجات الناس واعمالهم . فهل من السهل ان نلائم بين عالمي الزراعة والصناعة ؟ هنا لبّ المسألة وليس غير التجربة كفيلاً بالجواب . فاذا انتهى هذا العصر بالخيبة فقد نشهد انحطاطاً عالميّاً . فتحمل الروح القومية كلّ امة على الاكتفاء بذاتها . ويقلّ التداول الدولي حتى يكاد يُمّحى . وتصبح آية العصر الجديد شبيهة بآيات الحضارة الزراعية الغابرة

ومع ان هذه الخيبة ليست مستحيلة الا انها في نظرنا غير محتمة . واعتقد ان العصر المقبل سوف يتصف باتساع الثروة . على انني لست ادري أي الطرق يُعمد اليها في توزيع الثروة توزيعاً منصفاً ، وانما احسّ ان لا بدّ من وجود حلّ ما بعد كثير من العناء والألم . ثم ان مقدار البضائع التي تستهلك آخذ في الازدياد مع ان عدد السكان يميل الى النقص . واذن فالانسان المتوسط سوف يكون اعظم ثروة مما هو الآن . ويكاد يكون في حكم اليقين ان ساعات العمل تكون اقل مما هي الآن . وسواء كان النظام الاقتصادي في العصر الجديد رأسماليّاً أو اشتراكيّاً فالأرجح عندي ان الثروة فيه سوف تكون أعظم وساعات الفراغ أطول والمساواة اتمّ مما هي الآن . وقد يبقى هذا النظام مستقراً تعلوه مسحة السعادة الى مدى ثم يحدث انفجار يضيع التوازن فيبدأ الانسان بحثهُ من جديد